وأراه بطلانَ ما عليه هؤلاء الضلَّال الجهَّال، كتبها نصيحةً لبعض إخوانه، فأحببتُ أن أوردها بلفظها، وإن تضمَّنت بعض الطُّول والتكرار(١)، وأتعقَّب بعض كلامه بتقرير ما يحتاجُ إلىٰ تقرير، وبسؤالٍ يُورَدُ عليه ويُطْعَنُ به علىٰ كلامه، ثمَّ بالجواب عنه؛ ليكون قوَّةً للمسترشد، وبيانًا للمتحيِّر، وتبصرةً للمهتدي، ونصيحةً لإخواني المسلمين(٢).

وهذا أوَّلها:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

عصمَك الله من قبول الـمُحالات، واعتقاد ما لم تَقُم عليه الدلالات، وضاعَف لك الحسنات، وكفاك المهمَّات بمنِّه ورحمته(٣).

كنتَ ـ أدام الله توفيقَك وتسديدك ـ ذكرتَ لي ٱهتمامَك بما قد لهجَ به وجوهُ أهل زماننا من النظر في أحكام النجوم، وتصديق كلِّ ما يأتي به من ٱدعىٰ أنه عارفٌ بها مِن علم الغيب الذي تفرَّد الله سبحانه وتعالىٰ به، ولم يجعله لأحدٍ من الأنبياء والمرسلين، ولا ملائكته المقربين، ولا عباده الصَّالحين، مِن معرفة طويل الأعمار وقصيرها، وحميد العواقب وذميمها،

---

(١) وقد أحسن المصنف بذلك، فإن في إدراج مثل هذه المصنفات اللِّطاف في مثاني الكتب حفظًا لها، فمثلها يخشىٰ عليه الضياع إذا تمادىٰ الزمان، لا سيما ما يغيظ أهل الباطل، فإنهم يبادرون إلىٰ إعمال الحيلة في إعدامه، كما يقول السبكي في «طبقات الشافعية» (٣/ ٣٩٩).

(٢) اخترتُ تحبير نصِّ الرِّسالة، ليتميَّز عن تعليقات المصنف، وليسهل تتبعه لمن رام قراءته علىٰ الوجه.

(٣) (ت): «بمنه وكرمه».

وسائر ما يتجدَّدُ ويحدثُ ويُتَخوَّفُ ويُتمَنَّىٰ.

وسألتني أن أعملَ كتابًا أذكرُ فيه بعضَ ما وقع إليَّ من ٱختلافهم في أصول الأحكام الدَّالة علىٰ وهمهم وقُبح ٱعتقادهم، وما يُستَدلُّ به من طريق النظر والقياس علىٰ ضعف مذهبهم، وألخِّصُ ذلك وأختصرُه وأقرِّبه بحسب الوُسع والطاقة، فوعدتُك بذلك، وقد ضمَّنتُه كتابي هذا، واللهَ أسألُ عونًا علىٰ ما قرَّبَ منه[١]، وتوفيقًا لما أزلَفَ لديه، إنه قريبٌ مجيب فعَّالٌ لما يريد.

لستُ مستعملًا للتَّحامل علىٰ من أثبتَ تأثيرَ الكواكب في هذا العالم وتَرْكِ إنصافهم، كما فعل قومٌ ردُّوا عليهم، فإنهم دفعوهم عن أن يكون لها تأثيرٌ البتَّة غيرَ وجود الضِّياء في المواضع التي تطلعُ عليها الشَّمس والقمر، وعدمِه فيما غابا عنه، وما جرىٰ هذا المجرىٰ.

بل أسلِّمُ لهم أنها تؤثِّر تأثيرًا ما يجري علىٰ الأمر الطبيعي:

مثل: أن يكون البلدُ القليلُ العَرْض مزاجُه يميلُ عن الاعتدال إلىٰ الحرِّ واليُبس، وكذلك مِزاجُ أهله، وأجسامُهم ضعيفة، وألوانُهم سودٌ وصُفر، كالنُّوبة والحبشة، وأن يكون البلدُ الكثيرُ العَرْض مزاجُه يميلُ عن الاعتدال إلىٰ البرد والرطوبة[٢]، وكذلك مزاجُ أهله، وأجسامُهم عَبْلة[٣]، وألوانهم بيضٌ وشُعورُهم شُقر، مثلُ التُّرك والصَّقالبة.

ومثل: أن يكون النباتُ يَنْمِي ويقوىٰ ويشتدُّ ويتكاملُ وينضجُ ثمرُه

---

(١) في الأصول: «قررت منه». والمثبت من (ط) أشبه.

(٢) من قوله: «وكذلك مزاج أهله» إلىٰ هنا ساقط من (ت).

(٣) العَبْل: الضخم من كلِّ شيء. «اللسان» (عبل).

بالشَّمس والقمر، فإن أهلَ الصحراء ومن يُعانِيها[1] مجمعون علىٰ أن القِثَّاء تطولُ وتغلُظ بالقمر، وقد شاهدتُ غير شجرةٍ كبيرةٍ حاملةٍ من التِّين والتُّوت وغيرهما، فما قابلَ الشَّمس منها أسرعَ نضجُ الثَّمر الكائن فيه، وما خَفِي منها عنها بقي ثمرُه فِجًّا[2] وتأخَّر إدراكُه.

ومثال ذلك: ما يشاهَدُ من حال الرَّيحان الذي يقال له: اللَّينوفَر، وحال الخُبَّازىٰ، وورق الخِطْمِيِّ، والآذَرْيُون[3]، وأشياء كثيرةٍ من النبات، فإنَّا نراه يتحركُ ويتفتَّحُ مع طلوع الشَّمس، ويضعُف إذا غابت؛ لأن هذه أمورٌ محسوسة[4].

وليس الكلامُ في هذا التأثير كيف هو؟ وعلىٰ أيِّ سبيلٍ يقع؟ فما يليقُ بغرضنا هاهنا؛ فلذلك أدعُه.

فأمَّا ما يزعمونه فيما عدا هذا مِن أنَّ النجوم توجبُ أن يعيش فلانٌ كذا وكذا سنة، وكذا وكذا شهرًا، وينتهونَ في التحديد إلىٰ جزءٍ من ساعة، وأن

---

(١) وتحتمل قراءتها: يعاينها.

(٢) الفِجُّ من كلِّ شيء: ما لم ينضج. «اللسان» (فجج).

(٣) نباتات معروفة. انظر: «القاموس المحيط» (٦٢٥، ١٥١٦)، و«نهاية الأرب» (١١/ ٢١٩)، و«المعجم الوسيط» (٣٨١، ٢١٥، ٢٤٥)، و«معجم الألفاظ الزراعية» للأمير الشهابي (٤٤٩، ٤١٦، ٢٩، ٢٤، ١١٤). والأول: هو زهر اللوتس، ويقال له: سوسنة الماء، والأخير: هو دوَّار الشمس، ويسميه بعضهم: عبَّاد الشمس، والعبودية لا تكون إلا لله.

وذكر البيروني في كتاب «الصيدنة» أن النيلوفر يسمى: «وردة المجوس» و«وردة الشمس» و«خُرپرست» (ومعناه بالفارسية: عباد الشمس).

(٤) انظر: «مروج الذهب» (٢/ ٣٥٤)، وما سيأتي (ص: ١٢٨٢، ١٢٨٦).

تَدُلَّ علىٰ تقلُّد رجلٍ بعينه الـمُلك، وتقلُّد آخرَ بعينه الوزارة، وطول مدَّة كلِّ واحدٍ منهما في الولاية وقِصَرها، وما فعله الإنسانُ وما يفعلُه في منزله، وما يُضمِرُه في قلبه، وما هو متوجِّهٌ فيه من حاجاته، وما هو في بطن الحامل، والسَّارق ومن هو، والمسروق وما هو، وأين هو، وكميَّته، وكيفيَّته، وما يجبُ بالكسوف، وما يحدثُ معه، والمختار من الأعمال في كلِّ يومٍ بحسب اتصال القمر بالكواكب؛ مِن أن يكون هذا اليومُ صالحًا للقاء الملوك والرؤساء وأصحاب السُّيوف، وهذا اليومُ محمودًا للقاء الكتَّاب والوزراء، وهذا اليومُ محمودًا للقاء القضاة، وهذا اليومُ محمودًا لأمور النساء، وهذا اليومُ محمودًا لشرب الدواء والفَصْد والحجامة، وهذا اليومُ محمودًا للعب الشِّطرنج والنَّرد، وغير ذلك= فمحالٌ أن يكون معلومًا من طريق الحسِّ.

وليس عليه نصٌّ من كتاب الله، بل قد نصَّ الله سبحانه فيه علىٰ بطلانه بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ولا في سنة رسول الله ﷺ، بل قد جاء عنه ﷺ أنه قال: «من أتىٰ عرَّافًا أو كاهنًا أو منجِّمًا فصدَّقه بما يقولُ فقد كفر بما أُنزِل علىٰ محمد»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٨)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ١٣٥) من حديث أبي هريرة، دون قوله: «أو منجمًا». وصححه الحاكم، ولم يتعقبه الذهبي، وصححه في تهذيبه لسنن البيهقي (٦/ ٣٢٢٩).
وروي من وجهين آخرين مرسلاً ومنقطعًا، وله شواهد من رواية جماعة من الصحابة ابن مسعود، وجابر، وعلي، وعمران بن حصين، وواثلة بن الأسقع.
ولم أجد لفظة: «أو منجمًا» في شيءٍ من كتب الحديث المسندة، وهي داخلةٌ في معنىٰ الكهانة والعرافة. انظر: «شرح السنة» (١٢/ ١٨٢)، و«إكمال المعلم» (٧/ ١٥٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٧٣).

ولا هاهنا ضرورةٌ تدعو إلىٰ القول به.

ولا هو أوَّلٌ في العقول[1].

ولا يأتون عليه ببرهانٍ ولا دليلٍ مقنع.

وهذه هي الطُّرُقُ التي تثبتُ بها الموجودات، ويُعْلَمُ بها حقائقُ الأشياء، لا طريقَ هاهنا غيرها، ولا شيءَ لأحكام النجوم منها.

وأنا أبتدىءُ الآن بوصف جملةٍ من ٱختلافهم في الأصول التي يبنونَ عليها أمرَهم، ويفرِّعون عنها أحكامَهم[2]، وأذكرُ المستبشَع من أقاويلهم وقضاياهم وظاهر مناقضاتهم، ثمَّ آتي بطرفٍ من ٱحتجاجهم والاحتجاج عليهم، والله الموفِّق للصواب بفضله.

ذِكرُ ٱختلافهم في الأصول

زعموا جميعًا: أنَّ الخيرَ والشرَّ والإعطاء والمنعَ وما أشبه ذلك يكونُ في العالَم بالكواكب، وبحسب السُّعود منها والنُّحوس، وعلىٰ حسب كونها في البروج الموافقة والمنافرة لها، وعلىٰ حسب نظرها بعضِها إلىٰ بعض من التسديس والتربيع والتثليث والمقابلة، وعلىٰ حسب مُجَاسدة[3] بعضها بعضًا[4]، وعلىٰ حسب كونها في شَرفها وهبوطه ووَبالها.

---

(١) وهو ما لا يفتقر بعد توجُّه العقل إليه إلىٰ حدسٍ أو تجربة، كقولنا: الواحد نصف الاثنين. «التعريفات» (٥٨).

(٢) (ت): «وينزعون بها أحكامهم».

(٣) (ق): «محاشدة». تحريف. انظر: «الزيج الصابي» للبتاني (١٩٤، ١٩٦)، و«رسائل إخوان الصفا» (٤/ ٣٣٥).

(٤) قوله: «وعلىٰ حسب مجاسدة بعضها بعضًا» ليس في (ت).

ثمَّ ٱختلفوا علىٰ أيِّ وجهٍ يكونُ ذلك؟

فزعم قومٌ منهم أنَّ فعلَها بطبائعها، وزعمَ آخرون أنَّ ذلك ليس فعلًا لها لكنَّه يدلُّ عليه بطبائعها».

قلت: وزعمَ آخرون أنها تفعلُ في البعض بالعَرَض، وفي البعض بالذَّات.

قال: **«وزعمَ آخرون أنها تفعلُ بالاختيار لا بالطبع، إلا أنَّ السَّعدَ منها لا يختارُ إلا الخير، والنَّحسَ منها لا يختارُ إلا الشرَّ. وهذا بعينه نفيٌ للاختيار؛ فإنَّ حقيقةَ القادر والمختار القدرةُ علىٰ فعل أيِّ الضدَّين شاء، وتركِ أيهما شاء».**

قلت: ليس هذا بشيء؛ فإنه لا يلزمُ من كون المختار مقصورَ الاختيار علىٰ نوع واحدٍ سَلْبُ ٱختياره، ولكنَّ الذي يُبْطِلُ هذا أنهم يقولون: إنَّ الكوكبَ النَّحسَ سَعدٌ في برج كذا، وفي بيت كذا، وإذا كان الناظرُ إليه من النجوم كذا وكذا، وكذلك الكوكبُ السَّعْد.

ويقولون: إنها تفعلُ بالذَّات خيرًا، وبالعَرَض شرًّا، وبالعكس.

وقد يقولون: إنها تختارُ في زمانٍ بعد زمانٍ خلافَ ما تختارُ في زمانٍ آخر، وقد تتفق كلُّها أو أكثرُها علىٰ إيثار الخير(١)، فيكونُ في العالم في ذلك الوقت علىٰ الأكثر الخيرُ والنفعُ والحُسْن. قالوا: كما كان في زمن هُرمز(٢) وفي أيام أنوشِروان. وبضدِّ ذلك أيضًا.

---

(١) (ت): «إكثار الخير».

(٢) (ق، ت): «تهمز». والمثبت من (ط). وهرمز هو ابن أنوشروان. من ملوك الفرس.

فيقال: إذا كانت مختارةً، وقد تتفقُ علىٰ إرادة الخير وعلىٰ إرادة الخير والشرِّ، بطلَ دلالةُ حصولها في البروج المعيَّنة، ودلالةُ نظر بعضها إلىٰ بعض بتسديسٍ أو تربيعٍ أو تثليثٍ أو مقابلة؛ لأنَّ هذا شأنُ من لا يقعُ فعلُه إلا علىٰ وجهٍ واحدٍ في وقتٍ معيَّن علىٰ شروطٍ معيَّنة. ولا ريب أنَّ هذا ينفي الاختيار.

فكيف يصحُّ قولكم بذلك وجمعُكم بين هاتين القضيتين ـ أعني جواز ٱختيارها في زمانٍ خلافَ ما تختاره في زمانٍ آخر، وجواز ٱتفاقها علىٰ الخير واتفاقها علىٰ الشرِّ ـ من غير ضابطٍ ولا دليلٍ يدلُّكم عليه، ثم تحكمون بتلك الأحكام مستندين فيها إلىٰ حركاتها المخصوصة، وأوضاعها، ونسبة بعضها إلىٰ بعض؟!

قال: «**وزعمَ آخرون أنها لا تفعلُ باختيار، بل تدلُّ باختيار. وهذا كلامٌ لا يُعْقَلُ معناه، إلا أني ذكرتُه لـمَّا كان مَقُولًا.**

واختلفوا؛ فقالت فرقة: من الكواكب ما هو سَعدٌ، ومنها ما هو نَحس، وهي تُسْعِدُ غيرَها وتَنْحَسُه.

وقالت فرقة: هي في أنفسها طبيعةٌ واحدة، وإنما تختلفُ دلالتُها علىٰ السُّعود والنُّحوس، وإن لم تكن في أنفسها مختلفة.

واختلفوا؛ فقال قوم: إنها تؤثِّر في الأبدان والأنفس جميعًا.

وقال الباقون: بل في الأبدان دون الأنفس».

قلت: أكثرُ المنجِّمين علىٰ القول بأنها تُسْعِدُ وتَنْحَسُ غيرَها.

وأمَّا الفرقةُ التي قالت: هي دالَّةٌ[1] علىٰ السَّعدِ والنَّحس، فقولُهم وإن

(١) (ق): «دلالة».

كان أقربَ إلىٰ التوحيد من قول الأكثرين منهم فهو أيضًا قولٌ مضطربٌ متناقض؛ فإنَّ الدلالةَ الحسِّية(١) لا تختلفُ ولا تتناقض.

وهذا قولُ من يقول منهم: إنَّ للفلك طبيعةً مخالفةً لطبيعة الأُسْتُقُصَّات(٢) الكائنة الفاسدة، وأنها لا حارَّةٌ ولا باردة، ولا يابسةٌ ولا رطبة، ولا سَعْدَ ولا نَحْسَ فيها، وإنما يدلُّ بعضُ أجرامها وبعضُ أجزائها علىٰ الخير، وبعضُها علىٰ الشر، وارتباطُ الخير والشرِّ والسَّعد والنَّحس [بها](٣) ٱرتباط المدلولات بأدلَّتها، لا ٱرتباط المعلولات بعِلَلها.

ولا ريب أنَّ قائلَ هذا أعقلُ وأقربُ من أصحاب القول بالاقتضاء الطبيعيِّ والعلِّيَّة.

وأمَّا القولُ بتأثيرها في الأبدان والأنفس، فهو قولُ بَطْليموس وشِيعَته وأكثر الأوائل من المنجِّمين.

وهؤلاء لهم قولان:

أحدهما: أنها تفعلُ في الأنفس بالذَّات، وفي الأبدان بالعَرَض؛ لأنَّ الأبدانَ تنفعلُ عن الأنفس.

والثاني: أنها هي سببُ جميع ما في عالَم الكَوْن(٤) والفساد، وفعلُها

---

(١) (ق): «الحسنة». وهو تحريف.

(٢) العناصر الأربعة عند القدماء، وهي: الماء والهواء والنار والتراب. والأسطقس: الأصل البسيط يتكون منه المركَّب. «المعجم الوسيط» (١٧).

(٣) زيادة من (ط). وليست في الأصول.

(٤) الكون: استحالة جوهر المادة إلىٰ ما هو أشرف منه. ويقابله الفساد، وهو استحالة =

في ذلك كلِّه بالذَّات.

وكأنه لا خلافَ بين الطائفتين؛ فإنَّ الذين قالوا: «فعلُها في النفوس» لا يُضِيفون ٱنفعالَ الأبدان إلىٰ غيرها بذاتها، بل إليها بوسائط[1].

قال: «واختلفَ رؤساؤهم بَطْليموس ودورسوس[2] وأنطيقوس[3] ورِيمُس[4] وغيرُهم من علماء الروم والهند وبابل في الحُدود وغيرها، وتضادُّوا في المواضع التي يأخذون منها دليلَهم؛ فبعضهم يُغَلِّبُ ربَّ بيت الطَّالع، وبعضهم يقول بالدليل المستولي علىٰ الحظوظ.

واختلفوا؛ فزعَم بَطْليموس أنه[5] يعلمُ سهمَ السعادة، بأن يأخذَ أبدًا العددَ الذي يحصلُ من موضع الشَّمس إلىٰ موضع القمر، ويبتدىء من الطَّالع فيرصدَ منه مثل ذلك العدد، ويأخذَ إلىٰ الجهة التي تتلو من البروج؛ فيكون قد عرفَ موضعَ السَّهم.

وزعَم غيرُه أنه يَعُدُّ من الشَّمس، ثمَّ يبتدىء من الطَّالع فيَعُدُّ مثلَ ذلك إلىٰ الجهة المتقدِّمة من البروج».

قلت: وزعم آخرون أن بَطْليموس يرىٰ أنَّ جميعَ ما يكونُ ويفسُد إنما

= جوهر المادة إلىٰ ما هو دونه. «المعجم الوسيط» (كان). ويردُ هذا المصطلح هنا باشتقاقاتٍ مختلفة.

(١) قال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٠٣): «ولعل الخلاف لفظيٌّ».

(٢) مهملة في الأصول. وانظر: «الفهرست» (٣٠٠).

(٣) «الفهرست» (٣٢٧): «انطينوس». وانظر: «أخبار الحكماء» (٩٦، ١٣٢).

(٤) انظر: «الفهرست» (٤٢٠)، و«علم الفلك» لنلِّينو (٢١٩).

(٥) (ق): «أنهم». وهو خطأ.

يُعْرَفُ دليلُه من موضع ٱلتقاء النيرِّين، إمَّا الاجتماعُ وإمَّا الامتلاء[1]؛ لأنَّ هذين الكوكبين عنده مثلُ الرئيسين العظيمين، أحدُهما يأتمرُ لصاحبه[2] وهو القمر، وهما سببا جميع ما يحدثُ في عالم الكَوْن والفساد، وأنَّ الكواكبَ الجاريةَ والثابتةَ منهما بمنزلة الجُند والعسكر من السُّلطان.

فإذا أراد النظرَ في أمرٍ من الأمور؛ إن كان بعد الاجتماع أو عنده فإنه يأخذُ الدليلَ عليه من الكوكب المستولي علىٰ جزء الاجتماع وجزئَي الشَّمس والقمر في الحال، ويشاركُه مع الشَّمس بالنسبة إلىٰ الطالع.

وإذا كان بعد الامتلاء أو عنده فإنه ينظرُ أيُّ النيرِّين كان فوق الأرض عند الامتلاء، وينظرُ إلىٰ الكوكب المستولي علىٰ ذلك الجزء وجزءِ النيِّر الذي كان بُعْدُ الشَّمس من الطالع كبُعْدِ القمر من سهم السعادة؛ فلذلك يجبُ عنده أن يؤخذ العددُ أبدًا من الشَّمس إلىٰ القمر؛ لتبقىٰ[3] تلك النسبة وهي البُعْدُ[4] بين كلِّ واحدٍ من النيِّرين طالعه محفوظ[5].

---

(١) للقمر من أوَّل الشهر إلىٰ آخره خمس حالات، منها: الاستقبال، ويسمَّىٰ: الامتلاء؛ لامتلاء القمر فيه نورًا، وذلك في الليلة الرَّابعة عشرة، ويكون في البرج السابع من بروج الشمس. ومنها: الاجتماع، وهو اجتماعه مع الشمس آخر الشهر، وهو تحاذيهما الكائن قبل الهلال. انظر: «نهاية الأرب» (١/ ٥٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٥/ ١٣٦).

(٢) (ت): «مأتم لصاحبه».

(٣) (ق): «ليبقىٰ».

(٤) (ت): «وفي البعد».

(٥) كذا في الأصول.

فهذا قولٌ آخر غيرُ أولئك(١).

وللفُرسِ مذهبٌ آخر، وهو أنهم قالوا: لما كانت الشَّمس لها نوبةُ النهار، والقمر له نوبةُ الليل، وكان سهمُ السعادة بالنهار يؤخذُ من الشَّمس إلىٰ القمر، وجبَ أن يُعكسَ ذلك بالليل؛ لأنَّ نسبة النهار إلىٰ الشَّمس مثلُ نسبة الليل إلىٰ القمر، وكلُّ واحدٍ من النيِّرين ينوبُ واحدًا من الزَّمانين، فيأخذون سهمَ السعادة - بزعمهم - بالليل من القمر إلىٰ الشَّمس، وبالنهار بالعكس.

وزعموا أنَّ كلام بَطْليموس إنما يدلُّ علىٰ هذا؛ لأنه قال: وإنْ أخذْنا من الشَّمس إلىٰ القمر إلىٰ خلاف تأليف البروج وألقيناه بالعكس كان موافقًا للأوَّل. فقالوا: يجبُ أن يُعكس الأمر بالليل.

فهذا ٱختلافُ المنجِّمين علىٰ بَطْليموس ينقُض بعضُه بعضًا، وليس بأيدي الطائفة برهانٌ يرجِّحون به قولًا علىٰ قول، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٨ - ٣٠].

قال: «واختلفوا؛ فرتَّبت طائفةٌ منهم البروجَ المذكَّرة والمؤنَّثة من البرج الطالع، فعدُّوا واحدًا مذكَّرًا وآخر مؤنَّثًا، وصيَّروا الابتداءَ بالمذكَّر.

وقسَّمَت طائفةٌ أخرىٰ البروجَ أربعةَ أجزاء، وجعلوا البروجَ المذكَّرة هي التي من الطالع إلىٰ وسط السماء، والتي تقابلها من الغرب إلىٰ وَتد الأرض، وجعلوا الرُّبعين الباقيين مؤنَّثين».

---

(١) (ط): «غير قول أولئك».

قلت: ومِنْ هذَيانهم في هذا الذي أضحكوا به عليهم العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين: حارَّ المزاج، وباردَ المزاج، وجعلوا الحارَّ[١] منها ذكرًا والباردَ أنثىٰ، وابتدؤوا بالحَمَل وصيَّروه ذكرًا حارًّا، ثمَّ الذي بعده مؤنَّثًا باردًا، ثم هكذا إلىٰ آخرها، فصارت ستَّةً ذكورًا وستَّةً إناثًا، وليست علىٰ الولاء، بل واحدٌ ذكر، وثلاثةٌ أخر[٢] أنثىٰ مخالفةٌ له[٣] في الطبيعة والذكوريَّة والأنوثيَّة، مع أن قسمة الفلك إلىٰ البروج قسمةٌ فرضيَّةٌ وضعيَّة، فهل في أنواع هذَيان الهاذِين أعجبُ من هذا؟!

ولـمَّا رأىٰ من به رَمَقٌ مِن عقلٍ منهم تهافُتَ هذا الكلام، وسخريةَ العقلاء منه، رام تقريبَه بغاية جهده وحِذْقه، فقال: إنما ٱبتدىء بالذَّكر دون الأنثىٰ لأنَّ الذَّكر أشرفُ من الأنثىٰ؛ لأنه فاعلٌ والأنثىٰ منفعِلة!

فاعجبوا يا معشر العقلاء ــ واسألوا اللهَ أن لا يخسِفَ بعقولكم كما خسَف بعقول هؤلاء ــ لهذا الهذَيان، أفترىٰ في البروج ناكحًا ومنكوحًا يكونُ المنكوحُ منها منفعِلًا لناكحه بالذكوريَّة، والأنوثيَّةُ تابعةٌ لهذا الفعل والانفعال فيها؟!

قال[٤]: وأيضًا، فالذكوريَّة والأنوثيَّة سببُ الانفراد والازدواج فيها؛ فإنَّ الأفرادَ ذكورٌ والأزواجَ إناث[٥].

---

(١) (ت): «المزاج الحار».

(٢) (ت): «وثلاثة أجزاء».

(٣) (ق): «مخالف له».

(٤) أي المنتصر لهم ممن به رمقٌ من عقل.

(٥) انظر: «السر المكتوم» (٣٥).

وهذا أعجبُ من الأول، أنَّ الذكرَ ينضمُّ إلىٰ الذكر فيصيرُ المضمومُ إليه أنثىٰ! فتبًّا للمصغي إليكم والـمُجَوِّزِ عقلُه صِدقَكم وإصابتَكم، وأمَّا أنتم فقد أشهد اللهُ سبحانه عقلاءَ عباده وألبَّاءهم[1] مقدارَ عقولكم وسخافتَها، فلله الحمدُ والمنة.

قال هذا المنتصرُ لهم: وإنما جعلوا الأفراد للذَّكر، والأزواجَ للأنثىٰ؛ لأنَّ الفردَ يحفظُ طبيعتَه ـ أعني ينقسم دائمًا إلىٰ فرد ـ، والزَّوجَ لا يحفظُ طبيعتَه ـ أعني ينقسم مرَّةً إلىٰ الأفراد ومرَّة إلىٰ الأزواج ـ، كما يعرِضُ ذلك للأنثىٰ، فإنها تلدُ مرَّةً مثلَها[2]، ومرَّةً ذكرًا مخالفًا لها، ومرَّةً ذكرين، ومرَّةً أنثيين، ومرَّةً ذكرًا وأنثىٰ.

وفسادُ هذا والعلمُ بفساد عقل صاحبه ونظره مُغْنٍ لذي اللُّبِّ عن تطلُّب دليل فساده.

قال المنتصر: وأمَّا لم جعلوا[3] البرجَ الأنثىٰ يلي[4] برجَ الذَّكر؟ فلأنَّ الطبيعةَ هكذا أَلَّفَتْ الأعدادَ واحدًا فردًا وآخر زوجًا، هكذا بالغًا ما بلَغ. وهذه القسمةُ عندهم هي قسمةٌ ذاتيَّةٌ للبروج.

ولها قسمةٌ ثانيةٌ بالعَرَض، وهي أنهم يبدؤونَ من الطالع إلىٰ الثاني عشر، فيأخذون واحدًا ذكرًا وهو الأول، وآخرَ أنثىٰ وهو ما يليه[5]. وهذه

---

(١) (ت): «وألبابهم».

(٢) (ت، ق): «تلد من مثلها».

(٣) (د، ق): «وإنما جعلوا».

(٤) (ت، ق): «بل». وهو تحريف.

(٥) (ت): «وهو الثاني وهي ما يليه».

تـختلفُ بحسب اختلاف الطالع.

والقسمةُ الأولىٰ إنما كانت ذاتيَّة لأنَّ الابتداءَ لها برأس الـحَمَل، وهـو موضـعُ تقـاطع الـدائرتين اللتـين همـا فلـكُ الـبروج ومعـدَّلُ النهـار. وأمَّـا الـمَيْل[1] للقسمة الثانية فإنه لا يبقىٰ علىٰ حالٍ واحدة؛ لأنه مأخوذٌ من الجـزء المماسِّ لأفق البلد، وهـو دائـمًا يتغيَّر بحركتـه مـع الكـلِّ، وحـصول الأجـزاء كلِّها واحدًا بعد آخر علىٰ الأفق في دورةٍ واحدة.

وأمَّا قسمةُ الفلك أرباعًا؛ فإنهم قالوا: إذا خرج خطٌّ من أفق المشرق إلىٰ أفـق المغـرب، وخـطٌّ مـن وتـد الأرض إلىٰ وسـط الـسماء، ٱنقسمت الـبروجُ أربعة أقسام، كلُّ قسمٍ ثلاثـة بـروجٍ علـىٰ طبيعـةٍ واحـدة، ٱبتـداءُ كـلِّ قـسمٍ مـن طرف قُطرٍ إلىٰ طرف القُطر الذي يليه، وأطرافُ هذين القُطـرين تـسمَّىٰ أوتـادَ العـالم، فالقـسمُ الأول مـن وتـد المـشرق إلىٰ وتـد العـاشر ذكـرٌ شرقـيٌّ مجفِّـفٌ[2] سريـع، ومـن وتـد العـاشر إلىٰ وتـد الغـارب مؤنـثٌ جنـوبيٌّ محرِقٌ[3] وسط، ومن وتد[4] الغارب إلىٰ وتد الرابع ذكرٌ مُقْبِلٌ رطبٌ غربيٌّ بطيء، ومن وتد الرابع إلىٰ وتد الطالع مؤنثٌ مُدْبِرٌ[5] مبرِّدٌ شماليٌّ وسط.

وهذه القسمة مخالفةٌ لتلك القسمتين؛ لأنَّ هـذه قـسمةُ الـبروج بأربعـة

---

(١) مَيْل فلك البروج عن فلك معدل النهار. انظر: «الزيج الصابي» (١٧).

(٢) الحرف الثاني مهمل في (د). (ق): «مخفف». (ت): «مخفق». وهو تحريف. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ١٠٤).

(٣) (ت): «محرن».

(٤) في الأصول: «ذيل». وهو تحريف.

(٥) (د، ق): «ذليل». (ت): «دليل». تحريف. انظر: «السر المكتوم» (٨٧).

أقسامٍ متساوية، كلُّ ثلاثة بروجٍ منها تسعين[1] درجة لها طبيعةٌ تخصُّها، مع أنَّ الفَلكَ شيءٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدة، وقِسمتُه إلىٰ الدَّرَج والبروج قسمةٌ وهميةٌ بحسب الوضع، فكيف ٱختلفت طبائعُها وأحكامُها وتأثيراتُها واختلفت بالذُّكوريَّة والأنوثيَّة؟!

ثم إنَّ بعض الأوائل منهم لم يقتصر علىٰ ذلك، بل ٱبتدأ بالدرجة الأولىٰ من الحَمَل فنسبها إلىٰ الذكوريَّة، والثانية إلىٰ الأنوثيَّة، وهكذا إلىٰ آخر الحُوت.

ولا ريبَ أنَّ هذا الهذَيان لازمٌ لمن قال بقسمة البروج إلىٰ ذكرٍ وأنثىٰ، وقال: الذكرُ طبيعةُ الفرد، والأنثىٰ طبيعةُ الزَّوج؛ فإنَّ هذا بعينه لازمٌ لهم في درجات البُرج الواحد، وكأنَّ هذا القائلَ تصوَّر لزومَه لأولئك، فالتزَمَه.

وأمَّا بَطْليموس فله هذيانٌ آخر؛ فإنه ٱبتدأ بأول درجة كلِّ برجٍ ذكر، فنسَب منها إلىٰ تمام ٱثني عشر[2] درجةً ونصفًا إلىٰ الذكوريَّة، ومنه إلىٰ تمام خمسٍ وعشرين درجةً إلىٰ الأنوثيَّة، ثمَّ قسم باقي البروج بنصفين، فنسَب النصفَ الأول إلىٰ الذكر والنصفَ الآخر إلىٰ الأنثىٰ، وعلىٰ هذه القسمة ٱبتدأ بالبرج الأنثىٰ فنسَب الثُّلثَ ونصف السُّدس إلىٰ الأنوثيَّة، ومثلها بعده إلىٰ الذكوريَّة، وبقي سُدْسٌ قسَمه بنصفين، فنسَب النصفَ الأولَ إلىٰ الأنثىٰ والآخرَ إلىٰ الذكر، كما عملَ بالبرج الذكر، حتىٰ أتىٰ علىٰ البروج كلِّها.

وأمَّا دوروسوس[3] فله هذيانٌ آخر؛ فإنه يقسِّم البروجَ كلَّها، كلَّ برجٍ

(١) كذا في الأصول. والجادة: تسعون. بالرفع.
(٢) كذا في الأصول. والجادة: اثنتي عشرة.
(٣) كذا. وتقدَّم (ص: ١٢٤٦) برسم: دورسوس.

ثمانيةً وخمسين دقيقةً ومئة وخمسين دقيقة[1]، ثمَّ ينظر؛ فإن كان البرج ذكرًا أعطىٰ القسمةَ الأولىٰ للذكر ثمَّ الثانية للأنثىٰ، إلىٰ أن يأتي علىٰ الأقسام كلِّها، وإن كان البرجُ أنثىٰ أعطىٰ القسمةَ الأولىٰ للأنثىٰ ثمَّ الثانية للذكر، إلىٰ أن يأتي علىٰ الأقسام كلِّها.

ولو قُدِّرَ أنَّ جاهلاً آخر قَفَزَ[2] هذه الأوضاع وقَلَبها وتكلَّم عليها لكان مِن جنس كلامهم، ولم يكن عندهم من البرهان ما يردُّون به قولَه، بل إنْ رأوه قد أصاب في بعض أحكامه ـ لا في أكثرها ـ أحسنُوا به الظنَّ، وتقلَّدوا قولَه، وجعلوه قدوةً لهم! وهذا شأنُ الباطل!

عُدنا إلىٰ كلام عيسىٰ في رسالته، قال: «**واختلفوا في الحدود؛ فزعم أهلُ مصر أنها تؤخذُ من أرباب البيوت، وزعم الكلدانيُّون أنها تؤخذُ من مدبِّري المثلَّثات**[3]».

وإذا كان ٱختلافُ الذين يقتدون[4] بهم في أصولهم هذا الاختلاف، وليس هم ممَّن يطالِبُ بالبرهان ولا يعتقدُ الشيءَ حتىٰ يصحَّ علىٰ البحث والقياس، فيعرفونَ مع من الحقُّ من رؤسائهم، وفي أيِّ قولٍ هو من أقوالهم فيعملون به، وإنما طريقتُهم التسليمُ لما وجدوه في الكتب المنقولة من لسانٍ

---

(١) في الأصول: «ثمانية وخمسين دقيقة مئة وخمسين دقيقة». وفي (ط): «ثمانية وخمسون دقيقة ومئة وخمسون ثانية». والمثبت من «روح المعاني» (٢٣/ ١٠٤).

(٢) (ت): «مر». (ط): «تفنن في».

(٣) (ق، د): «المثليات». وهو تحريف. انظر: «صفة جزيرة العرب» للهمداني (٣٩)، و«رسائل إخوان الصفا» (١/ ١٢٣)، و«روح المعاني» (٢٣/ ١٠٣).

(٤) (د، ق): «يعتدون».

إلىٰ لسان= فكيف يجوزُ لهم أن ينفردوا باعتقاد قولٍ من هذه الأقوال وينصرفوا عمَّا سواهُ إلا علىٰ طريق الشَّهوة والتخمين؟! والله المستعان.

ذِكرُ بعض ما يُستبشَعُ من أقوالهم ويُستَدلُّ به علىٰ مناقَضتهم

مِن ذلك: زعمهُم أنَّ الفلكَ جسمٌ واحد، وطبيعةٌ واحدة، وأنه شيءٌ واحد، وليس بأشياء مختلفة، ثم زعموا بعد ذلك أنَّ بعضَه ذكرٌ وبعضَه أنثىٰ، ولا دلالة لهم علىٰ ذلك ولا برهان، ولا وجدنا جسمًا واحدًا في الشَّاهد بعضُه ذكرٌ وبعضُه أنثىٰ».

قلت: قد رامَ بعضُ الملبِّسين من فضلائهم تصحيحَ هذا الهذَيان، بأن قال: ليس يستحيلُ أن يكون جسمٌ واحدٌ بعضُه أنثىٰ وبعضه ذكر، كالرَّجل مثلًا، فإنَّ العينَ والأذنَ واليد والرِّجلَ منه مؤنثة، والرأسَ والصُّلبَ والصدرَ والظهرَ منه ذكر.

وأيضًا؛ فإنَّ الجسم مركَّبٌ من الهَيُولىٰ والصورة[1]، والهَيُولىٰ مذكرةٌ والصورةُ مؤنثة.

وأيضًا؛ لـمَّا وجدَ المنجِّمون الشَّمسَ تدلُّ علىٰ الآباء والأبُ ذكرٌ، والقمرَ يدلُّ علىٰ الأمِّ وهي أنثىٰ، قالوا: إنَّ الشَّمس ذكرٌ والقمرَ أنثىٰ.

قالوا: وقد قال أرسطو في كتاب «الحيوان»: طَمْثُ المرأة يدرُّ في نقصان الشهر، ولذلك[2] قال بعض الناس: إنَّ القمر أنثىٰ.

---

(١) الهيولىٰ: لفظ يوناني، بمعنىٰ الأصل والمادة. والصورة: ما به يحصُل الشيء بالفعل، كالهيئة الحاصلة للكرسي بسبب اجتماع الخشب. «المعجم الفلسفي» (٥٣٦، ٧٤١).

(٢) (ق، ت): «وكذلك».